

الشيخ محمد الغزالي: على طريق الدعوة



الأحد 5 يوليو 2020 02:06 ص

نحن ندعو ربنا في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، والصراط المستقيم ليس خطاً وهمياً ينشأ عن هوى الأفراد والجماعات، وإنما هو حقيقي يرسمه من الناحية العلمية: القرآن الكريم، ومن الناحية العملية: الرسول الذي حمل الوحي وطبقه ورَبَّى جيلاً من الناس على عقائده وشرائعه.

والتاريخ الإنساني يشهد بقوة ووضوح أن قافلة الإسلام لزمّت هذا الصراط حيتاً من الدهر، وأنها قدّمت للعالم نماذج حية في بناء الخلق والمجتمع والدولة..

نعم.. كان السلف الأول عابدين لله، ذوي بصائر تنزوا إليه وتستمد منه، وتنضح بالتقوى والأدب في كل عمر يباشرونه. وكانوا -إلى ذلك- خبراء بالحياة يسوسونها بالعدل والرحمة، ويقمعون غرائز التطلع والحيث، ويرفضون ما سبق الإسلام في ميدان الحكم من فرعونية وكسروية وقيصرية، كما يرفضون ما سبق الإسلام في ميدان التدبّر من شرك أو تجسيد أو تعطيل..

إن الصراط المستقيم ليس وقوف فرد في المحراب لعبادة الله وكفى، إنه جهاد عام لإقامة إنسانية توقّر الله، وتمشى في القارات كلها وفق هداه، وتتعاون في السراء والضراء حتى لا يذل مظلوم، أو يشقى محروم، أو يعيش في الأرض مترف، أو يعبث بالحقوق مغرور.

وقد وقعت خلال القرون الطويلة انحرافات دقيقة أو جلية! وقبل أن تتفرس في هذه الانحرافات وتحدث عن مداها نريد أن نقرر حقيقة مهمة: إن السلف الأول وحدهم هم مصدر الأسوة، ويعجبني ما روي عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: "من كان مستنّاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة! أولئك أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقفلها تكلفاً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم".

إن بعض الذين ضاقوا بالانحرافات المعاصرة في العالم الإسلامي فكروا في العودة إلى الأمس القريب، أو إلى بضعة قرون مضت! فقلت لهم: لا.

مثلاً الأعلى في القرن الأول وحده، ففي الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ".

والاقتداء بداهة ليس في ركوب الخيل والإبل، والحرب بالسيف والرمح! الاقتداء في التجرد والخشية وإيثار الآخرة!! أما تأمين الحقيقة فقد استحدثت له وسائل مدنية وعسكرية لا حصر لها، ويجب على حملة الرسالة إتقان هذه الوسائل.. وقد بين أولو العلم ما يجب التزامه شكلاً وموضوعاً من شؤون العبادات المحضة أما غيرها فنسقى آخر..

العدل هو العدل، ولكن ضمانات وصوله إلى ناشديه تكثر وتتغير على مر العصور، وقد قيل: تحدث للناس أقضية بقدر ما استحدثوا من فجور..

والشورى هي الشورى بيد أن ضمانات التعبير عن الرأي وضمائنات الوقوف أما الاستبداد تختلف باختلاف البيئات والملل..

وفي عصرنا هذا قامت أجهزة للدعاية تخدم شتى الملل والنحل بأساليب فائنة، فإذا لم نسبقها ونسبق، ظلماً ديننا، وأضعنا حقنا، وكان علينا وزر المفرطين.

الصراط المستقيم إذن معروف بالعقل والنقل فلماذا يقع الانحراف عنه؟

والجواب: طبيعة البشر! إننا نخطئ وليس في ذلك عجب! ولكن العجب أن يبقى الخطأ وأن نُصرّ عليه!!

الانحراف عن الصراط المستقيم

والأعجب من ذلك أن يمضي البعض في طريق الانحراف وهو لا يدري! أو لعله يحسب نفسه على صواب.. وميلاد الانحراف خلقياً كان أو اجتماعياً أو سياسياً يبدأ من نقطة ما، ثم يسير مشكلاً مع الخط المستقيم زاوية حادة، فإذا قست المسافة بين خط الزيغ والخط المستقيم وجدتَها قدر إصبع، ثم تمتد فتصير قدر شبر، ولا يزال الزمان يطيل المسافة بين الخطين حتى تصير قدر ميل أو أميال، ويكون البعد عن الحق شاسعاً!!!

والانحراف المعيب لا يقع في مكان واحد بل قد تتعدد أسباب الميل، وتكثر المتعرجات النائية، وتنحل عرا الإسلام عروة عروة بالصمت الجبان وترك الفتن تمشي حبلها على غاربها، بل إن معالم الصراط المستقيم تكاد تخفى مع توارث العوج وذبوع الجهل لولا أن الله سبحانه تعهد دينه بمن يجدد أمره، ويجلو بريقه، ويذود عنه الآفات..

إذا ذكرت كلمة "الدين" سبق إلى فكر الناس ما وراء المادة والبحوث الغيبية المحيرة في هذا المجال!!، فهل الأمر كذلك عندنا؟ كلا. إن الفاتحين الأوائل ما أثاروا بين الشعوب قضية من هذا الطراز، لقد انطلقوا باسم الله الواحد ينقلون الجماهير من الظلمة إلى النور، من الظلم إلى العدل، من الخرافة إلى الحق فشغلوا الناس برؤية الميزان الذي أقاموه لكفالة معاشهم ومعادهم عن بحوث ما وراء المادة.

الكلام في العقيدة موجز مجمل: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (طه:8)

والتفاصيل أعمال صالحة تبدأ من إقام الصلاة وتنتهي بتنظيف الطرق! وتقصي من الحياة العامة أسباب الشكوى والهوان: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) (الحديد:25) .

من كتاب "هموم داعية" للشيخ محمد الغزالي

